من الذى طلب الصلح

وما لاقاه الإمام الحسن بسببه

اختلف المؤرخون اختلافاً كثيراً فيمن بادر لطلب الصلح ، فابن خلدون ذكر أن الذى طلب الصلح الإمام الحسن ، ويقول ابن أبى الحديد إنه لما رأى الإمام تفرق الكلمة عنه كتب إلى معاوية ، بينما يذهب فريق كبير من المؤرخين إلى القول بأن معاوية هو البادئ فى طلب الصلح كما يدل عليه خطاب الحسن الذى بعثه إلى أصحابه فى المدائن وقال فيه : « ألا إن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة » ، وإن كان بعض رجال التاريخ يقول خلاف ذلك ، وما ضرر معاوية أن يعطى الحسن كل شرط ليأخذ عليه شرطاً واحداً هو الملك .

وقرر معاوية خطته هذه فى نجران نشاط الفريقين للحرب ، وكان فى توفره على تنفيذ هذه الخطة أعنف منه فى عمله لتنظيم المعسكرات وتدبير شئون الحرب .

ورأى أن يبادئ الحسن بطلب الصلح ، فإن أجيب إليه فذاك ، وإلا فلينتزعه انتزاعاً دون أن يلتحم والحسن فى قتال . ومن هنا كانت سياسة معاوية التى تقوم على استمالة الناس والجنود بالأراجيف والرشوة ، وقيل إنه جاءت فى قائمة وعوده التى خلب بها ألباب كثير من الزعماء أو المتزعمين :

رئاسة الجيش – ولاية قطر – مصاهرة على أميرة أموية ، وغير ذلك حتى إنه جاء فى أرقام رشواته النقدية ألف ألف مليون .

واستعمل فى سبيل هذه الفكرة كل قواه وكل مواهبه وكل تجاربه واستجاب له فعلا كثير من باعة الضمائر الذين كانوا لا يفارقون الحسن ظاهراً ، فإذا هم عيون معاوية التى ترى وأصابعه التى تعمل وعملاؤه الذين لا يدخرون وسعاً فى ترويج أهدافه . هذا هو الجو الذى كان يعيش فيه الإمام الحسن .

وأصبح هو نفسه لا يتسنى له تنفيذ أوامره فى جيشه بما فعلته الأراجيف من حوله بل لا يستطيع الظهور بشخصه أمام الكثرة من جنوده إلا ليغتال بين مضاربه وعلى سواعد أصحابه .

ولم يكن هناك إلا الصلح ، ولم يكن أمامه إلا أن يلبى طلب معاوية للصلح ، ولكنه لم يلبه إلا ليركسه فى شروط لا يسع رجلا كمعاوية إلا أن يجهر فى غده القريب بنقضها شرطاً شرطاً ، ثم لا يسع الناس – إذا هو فعل ذلك – إلا أن يجاهروه السخط والإنكار – فإذا بالصلح نواة السخط الممتد مع الأجيال ، وإذا بهذا السخط نواة الثورات التى تعاونت على تصفية السيطرة الاغتصابية فى التاريخ ، وليكن هذا هو التصميم السياسى الذى نزل الحسن من طريقه إلى قبول الصلح ، ولتكن هذه هى السياسة التى استغل بها معاوية فكانت من أبرز معانى العبقرية المظلومة فى الإمام المظلوم ، ولكن لماذا طلب معاوية الصلح ؟

إن دوافع معاوية لطلب الصلح من نوع آخر لا يرجع فى جوهره إلا العجز

عن القتال ، ولا ينظر فى واقعه إلى وجهة نظر دين أو إصلاح أو حقن دماء ، فلا الإصلاح ولا حقن الدماء بالذى يعنى به معاوية فيتزل له عن مطامعه فى الفتح .

ولقد خيل إليه بأن تنازل الحسن له عن الحكم سيكون معناه فى الرأى العام تنازله عن (الخلافة) وظن أنه سيصبح على هذا (الخليفة الشرعى فى المسلمين) ، وللحسن البصرى كلمته فى هذا الموضوع رواها الطبرى ، وسبق أن ذكرتها فى موضع سابق ولا مانع من الإشارة إليها هنا أيضاً ، فقد قال : « أربع خصال كن فى معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة : انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها (يعنى الخلافة) بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » وقتله حجراً ويل له من حجر وأصحاب حجر .

هذا ولا ينكر أن يكون لمعاوية بواعث أخرى جعلت منه إنساناً آخر ينكر الحرب ويمد يده إلى الصلح ويوقع الشروط ويحلف الإيمان ويؤكد المواثيق .

أما أهم الأسباب التى دعته لأن تكون بعض دوافعه إلى الصلح فهى :

أولا : إنه كان يرى أن الحسن بن على عليهما السلام – هو صاحب الحق فى الأمر – ولا سبيل إلى اقتناص الأمر إلا من طريق إسكات الحسن

– ولو ظاهراً – ولا سبيل إلى إسكاته إلا بالصلح ، أما رأيه بأولوية الحسن بالأمر – فقد جاء صريحاً فى كتابه إليه قبيل زحفهما للصراع بقوله : « إنك أولى بهذا الأمر وأحق به » وجاء صريحاً فيما قاله لابنه على ذكر أهل البيت « يا بنى إن الحق حقهم » كما جاء فى ابن أبى الحديد ، وفيما كتبه إلى زياد ابن أبيه حيث يقول له على ذكر الحسن عليه السلام : « وأما تسلطه عليك بالأمر فحق للحسن أن يتسلط » ، كما كان يعترف للحسن بأنه (سيد المسلمين) وهل سيد المسلمين إلا إمامهم .

ثانياً : أنه كان على كثرة الوسائل الطيعة لأمره شديد التوجس من نتائج حربه مع الحسن ، ولم يكن كتوماً يوم قال فى وصف خصومه العراقيين « فوالله ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين إلا لُبس على عقلى » ، ويوم قال فيهم « ما لهم غضبهم الله بشر ما قلوبهم إلا كقلب رجل واحد » فكان يرى فى الجنوح إلى الصلح مفراً من منازلة هؤلاء ومواجهة عيونهم تحت المغافر .

ثالثاً : أنه كان يهاب موقع الحسن ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ومقامه الروحى الفريد فى العقيدة الإسلامية فيتقى حربه بالصلح .

كذلك كان يرى أنه من الجائز أن يقيض الله لمعسكر الشام من يتطوع لتنبيه الناس فيه إلى حقيقة أمر الحسن وفظاعة موقفهم منه الأمر الذى من شأنه أن لا يتأخر بمسلمة الجيش فى جبهة معاوية على الانتقاض عليه والنكول عنه وبالجيش كله عن الانهيار أخيراً .

وكان معاوية يتذكر ما قاله النعمان بن جبلة فى (صفين) حيث قال :

« والله لقد نصحتك على نفسي وآثرت ملكك على دينى وتركت لهواك الرشد وأنا أعرفه وحدت عن الحق وأنا أبصره ، وما وفقت لرشد وأنا أقاتل عن ملكك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول مؤمن به ومهاجر معه ، ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعية وأجزل فى العطية ، ولكن قد بذلنا لك الأمر ولا بد من إتمامه كان غيًّا أو رشداً وحاشا أن يكون رشداً ، وسنقاتل عن تين الغوطة وزيتونها إذ حرمنا أثمار الجنة وأنهارها . . .[1] » .

وكان من سياسة معاوية حبس أهل الشام على التعرف على أحد من كبراء المسلمين – خارج الشام – لئلا يكون لهم من ذلك منفذ إلى إنكاره أو الانقسام عليه ، ولذلك كان من المستغرب لهذا الشامى معرفة ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفة سبقه إلى الإيمان ورأفته بالناس وكرمه فى العطاء وأولويته بالأمر .

وكانت سياسة معاوية تجهيل أهل الشام بأعلام الإسلام إلى آخر عهده ، وكانت سياسته هذه هى أداته فى التجمعات التى ساقها لحروب صفين أولا ولحرب الحسن بن على أخيراً .

وتجد ظاهر هذه السياسة – بما فيها من إعلان عن ضعف صاحبها – فيما قاله معاوية ذات يوم لعمرو بن العاص ، وقد تحدى الإمام الحسن فرد عليه الإمام بحدّياه التى لم يسلم منها المحرض عليها أيضاً . فقال معاوية لعمرو :

(١) المسعودى (هامش ابن الأثير) .

« والله ما أردت إلا هتكى ما كان أهل الشام يرون أن أحداً مثلى حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا » .

رابعاً : كان معاوية يقصد من وراء هذه الدعوة على ظاهرها التمهيد لغده القريب الذى ستنكشف عنه نتائج الحرب بينه وبين الحسن ، وكان أحد الوجهين المحتملين أن يدال للشام من الكوفة ، وأن تقضى الحرب وذيولها على الحسن والحسين وعلى من إليهما من أهل بيتهما وشيعتهما — ولا تدبير - يومئذ للعذر من هذه البائقة الكبرى أروع من أن يلقى معاوية مسئوليتها على الحسن نفسه ، ويقول للناس : « إنى دعوت الحسن للصلح ولكن الحسن أبى إلا الحرب ، وكنت أريد له الحياة ، ولكنه أراد لى القتل ، وأردت حقن الدماء ولكنه أراد هلاك الناس بينى وبينه » .

أنتقل بعد ذلك إلى ما لاقاه الإمام الحسن بسبب الصلح فأقول إن صلح الحسن عليه السلام مع معاوية كان من أشد ما لقيه أئمة أهل البيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا قوة لأحد عليها إلا بالله عز وجل ، ولكنه كما سنرى رضخ لها صابراً محتسباً وخرج منها ظافراً بما يبتغيه من النصح لله تعالى ولكتابه عز وجل ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم . ولا وزن لمن اتهمه بأنه أخلد بصلحه إلى الدعة وآثر العافية والراحة إلا لمن طوحت بهم الحماسة من أنصاره فتمنوا عليه لو وقف فى جهاد معاوية لوصل إلى الحياة من طريق الموت وفاز بالنصر والفتح من الجهة التى انطلق منها صنوه يوم الطف إلى نصره العزيز وفتحه المبين .

ومما لا شك فيه ان صلح الحسن لم يقابل بالارتياح من كثير من المسلمين كما سأبينه تفصيلا . وكما قلت تحمل الإمام الحسن كثيراً فى مقابل هذا . والإمام كما سبق أن بينا لم يقبل الصلح إلا لحقن دماء المسلمين وتوحيد كلمتهم غير مفتر بما كان حوله من رجال أشداء وقال عنهم كانت جماجم العرب بيدى يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت فتركتها ابتغاء وجه الله تعالى وحقن دماء المسلمين وغير آبه بما قاله له أصحابه وما نعتوه به من الشتائم والقذائف ، كان إذا مر بجماعة من أشد أصحابه حماسة فى نصرته ونصرة أبيه من قبله يتلقونه قائلين « يا عار المؤمنين » فيجيبهم فى هدوء ووقار ويقول العار خير من النار .

ويروى أبا روق الهمدانى حدث عن أبى الغريف أحد أصحاب الحسن قال : « كنا فى مقدمة الحسن بن على اثنى عشر ألفاً بمسكن مستميتين تقطر أسيافنا من الحرد والحرص على قتال أهل الشام وعلينا أبو العمير طه . فلما جاءنا صلح الحسن بن على كأنما كسرت ظهورنا من الغيظ والحزن ، فلما جاء الحسن الكوفة أتاه شيخ منايكنى أبا عامر شعبان بن أبى ليلى .

فقال : السلام عليك يا مذل المؤمنين .

فقال : لا تقل يا أبا عامر فإنى لم أذل المؤمنين ، ولكن كرهت أن أقتلهم فى طلب الملك .

ويقول المغفور له الدكتور طه حسين إن الصلح أسخط على الحسن جماعة من أصحابه الذين أخلصوا له ولأبيه وأخلصوا فى بغض معاوية وأهل

الشام ورأوا فى هذا الصلح نوعاً من التسليم لم يكن يلائم ما بذلوا أيام على من جهد ، ولم يكن يلائم كذلك ما كان فى أيديهم من قوة ، فمنهم من كان يقول للحسن يا مذل المؤمنين ومنهم من كان يقول يا مذل العرب ، ومنهم من قال له يا مسود وجوه العرب .

وفى الواقع أنه إذا كانت محنة الأيام قاسية فقد تجاوز بلاؤه إلى ما هو أعظم وأشد أثراً فى نفسه وهوكلام المنددين بصلحه من أصحابه وغيرهم ، فقد جابهوه بكلام أشد عليه من وقع الحسام المهند ، فقد رأى منهم غلظة فى القول وقسوة فى الحديث وجفاء أى جفاء ، فاستاء من أنصاره أكثر مما استاء من أعدائه لأنهم على علم بالظروف والعوامل القاسية التى ألجأته إلى الصلح والهدنة .

وقد أقبل بطل العقيدة ومثال لإيمان « حجر بن عدى » إلى الإمام وقد مشت الرعدة بأوصاله واستولى عليه الحزن قائلا :

« أما والله لوددت أنك مت فى ذلك اليوم ومتنا معك ولم نر هذا اليوم فإنا رجعنا راغمين بما كرهنا ورجعوا مسرورين بما أحبوا » .

ويعلق الأستاذ باقر القرشى على هذا القول ويقول : « لا أدرى كيف فاه حجر بهذا الكلام القاسى وهو أعلم بمركز الإمام من غيره ، وأدرى بالظروف العصيبة والمصاعب الشديدة التى أحاطت بالإمام حتى اضطرته إلى الصلح ، ولكنه يعذر ، لأن لوعة المصاب وذهول النفس تخرج الإنسان عن موازين الاعتدال والاستقامة » .

وقام الإمام الحسن فأخذ بيد حجر واختلى به فى زاوية من زوايا البيت فبين له الحكمة التى من أجلها صالح معاوية قائلا : « يا حجر قد سمعت كلامك فى مجلس معاوية ، وليس كل إنسان يحب ما تحب ولا رأيه كرأيك ، وإنى لم أفعل إلا إبقاءً عليكم ، والله تعالى يقول « كل يوم هو فى شأن » ، ثم أبان الإمام عدم وجود المخلصين له فى الجيش العراق ، ولو كان هناك أمثال حجر فى عقيدته وإيمانه ورأيه وإخلاصه لما صالح معاوية ، كما بين عليه السلام أنه إنما صالح خصمه محافظة على حجر وأمثاله من المؤمنين .

واندفع الصحابى العظيم وهو الذى ضرب الرقم القياسى للعقيدة والإيمان والفداء فى سبيل الله « عدى بن حاتم » بثورة نفسية عارمة إلى إنكار الصلح ، وكانت لهجة حديثه لهجة مؤدب كامل ، فقال للإمام وقد ذابت حشاه من الحزن والمصاب :

« يا ابن رسول الله ، لوددت أنى مت قبل ما رأيت ، أخرجتنا من العدل إلى الجور ، فتركنا الحق الذى كنا فيه ودخلنا فى الباطل الذى كنا نهرب منه ، وأعطينا الدنية من أنفسنا وقبلنا الخسيس التى لم تلق بنا » .

وترك كلام عدى فى نفس الإمام بالغ الأسى والحزن ، فانبرى عليه السلام مبيناً له العلة التى صالح من أجلها قائلا :

« يا عدى إنى رأيت هوى معظم الناس فى الصلح ، وكرهوا الحرب فلم أحب أن أحملهم على ما يكرهون ، فرأيت دفع هذه الحروب إلى يوم ما ،

فإن الله قال كل يوم هو فى شأن ، وأعرب عليه السلام فى جوابه عن سأم جيشه من الحرب وحبه للعافية وإيثار السلم ، ولم يقتنع عدى بكلام الإمام ، فمضى وهو مثقل الخطى نحو الإمام الحسين وقلبه يلتهب ناراً وحماساً ، وكان معه عبيدة بن عمر ، فلما انتهى إلى الإمام قال له بنبرات تقطر حماساً وعزماً إلى إثارة الحرب :

« يا أبا عبد الله شربتم الذل بالعز وقبلتم القليل وتركتم الكثير ، أطعنا اليوم وأعصينا الدهر . دع الحسن وما رأى من هذا الصلح واجمع إليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها . وولنى وصاحبى هذه المقدمة ، فلا يشعر ابن هند إلا ونحن نقارعه بالسيوف .

فقال له عليه السلام : « إنا قد بايعنا وعاهدنا ولا سبيل لنقض بيعتنا » .

« والمسيب بن نجية » وهو من عيون المؤمنين وخيار الصالحين الذين عرفوا بالولاء والإخلاص لآل البيت عليهم السلام ، وقد تأثر من الصلح وتألم بكل ما للتألم من معنى ، فقد أقبل إلى الإمام وهو محزون النفس مكلوم القلب قائلا :

« ما ينقضى تعجبى منك ؛ بايعت معاوية ومعك أربعون ألفا ، ولم تأخذ لنفسك وثيقة وعهداً ظاهراً ، أعطاك أمراً فيما بينك وبينه ، ثم قال ما قد سمعت والله ما أراد بها غيرك ، فقال له الإمام : ما ترى « أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه ، فقد كان نقض ما بينك وبينه » فانبرى إليه الإمام مبيناً له أن المصلحة كانت تقضى بالصلح قائلا :

« يا مسيّب إنى لو أردت ، بما فعلت ، الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ولا أثبت عند الحرب منى ، ولكنى أردت صلاحكم وكف بعضكم عن بعض » .

وأعرب الإمام فى حديثه أنه لو كان من طلاب الدنيا وعشاق الملك والسلطان ، ما كان معاوية بأصبر منه ولا أثبت فى الحرب ، ولكن الانتصار عليه يتوقف على الاعتماد على الطرق التى لا يقرها الدين كالمواربة والمداهنة وما شاكل ذلك ، ولكنه عليه السلام أبى أن يسلك ذلك وسار على خطة أبيه الداعية إلى ملازمة الحق والعدل ومتابعة الشرع .

ودخل على الإمام (مالك بن ضمرة) وكان معروفاً بسعة العلم والفضل ، وكان ملازماً للصحابى العظيم أبى ذر ، وقد أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما حضرته الوفاة أوصى بسلاحه إلى المجاهدين من بنى ضمرة واشترط عليهم ألا يقاتلوا به أهل البيت ، فقال له أخوه يا أخى عند الموت تقول هذا ، فقال له هو ذاك .

ولما أقبل سيد الشهداء إلى العراق وخرج أهل الكوفة لقتاله ، جاء أحد أعوان ابن زياد إلى موسى بن مالك مستعيراً منه رمح أبيه ليقاتل به ريحانة رسول صلى الله عليه وسلم فأعطاه إياه .

فلما خرج قالت له امرأة من أهله : يا موسى أما تذكر وصية أبيك ؟ فلما سمع بذلك طلبه حتى أخذ منه الرمح فكسره[1] .

---

(١) الإصابة ٣ - ٤٦٠ .

وقال مالك للإمام الحسن كلاماً مرًّا وكان فى منتهى الشدة ، فأجابه الإمام :

« إنى خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض فأردت أن يكون للدين ناع » ، وأدلى الإمام عليه السلام فى حديثه عن حرصه على دماء المسلمين وأنه لو فتح باب الحرب بينه وبين معاوية لما بقى مسلم على وجه الأرض ، فصالح حفظاً على دماء المسلمين وإبقاء عليها .

أما (سفيان بن أبى ليلى) والذى كان ممن يدين بفكرة الخوارج فقد دخل على الإمام وتكلم بكلمات تنم عن نفس مترعة بالجفاء والجهل قائلا :

« السلام عليك يا مذل المؤمنين » فتأثر عليه السلام منه واندفع قائلا :

« ويحك أيها الخارجى ، لا تعنفنى ، فإن الذى أحوجنى إلى ما فعلت قتلكم أبى وطعنكم إياى ، وانتهابكم متاعى ، وإنكم لما سرتم إلى صفين كان دينكم أمام دنياكم ، وقد أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ، ويحك أيها الخارجى : إنى رأيت أهل الكوفة قوماً لا يوثق بهم ، وما اعتز بهم إلا من ذل ، وليس أحد منهم يوافق رأى الآخر ، ولقى أبى منهم أموراً صعبة وشدائد مرة ، وهى أسرع البلاد خراباً ، وأهلها هم الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً » .

ومن الغريب أن نسمع كلمة (مذل المؤمنين) مرة أخرى من رجل جليل من أصحاب الإمام الحسن وهو « سليمان بن صرد » ، فقد كان من صفوة أصحاب الإمام فى إيمانه وعقيدته وولائه لآل البيت عليهم السلام ، وقيل إنه لم يكن حاضراً فى المدائن حينما جرى الصلح ، فلما وافته الأنباء المؤلمة ،

توجه إلى الإمام وكان فى يثرب وقال :

السلام عليك يا مذل المؤمنين ، ثم اندفع قائلا :

« إن تعجبنا لا ينقضى من بيعتك لمعاوية ، ومعك أربعون ألف مقاتل من أهل العراق ، وكلهم يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك ثقة فى العقد ، ولا حظًّا من العطية ، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد والميثاق ، كنت كتبت عليه بذلك كتاباً وأشهدت عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب ، إن هذا الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به من قوله ، ثم قال : وزعم على رءوس الناس ما قد سمعت « إنى كنت شرطت لقوم شروطاً ، ووعدتهم عدات ومنيتهم أمانى إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فإن كل ما هنالك تحت قدمى هاتين ، والله ما عنى بذلك إلا نقض ما بينك وبينه فأعد للحرب خدعة وأذن لى أن أشخص إلى الكوفة فأخرج عامله منها وأظهر فيها خلعه ، وانبذ إليه على سواء ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين » .

ويدل هذا الحديث بدون شك ، على شدة إخلاص سليمان بن صرد وولائه للإمام على ، وقد حفزه إلى الثورة على حكومة معاوية ونقض البيعة لأنه لم يف بالعهد ولم يلتزم ببنود الصلح ، كما أعلن ذلك أمام الرأى العام .

ولما كانت المصلحة العامة للمسلمين لا تساعد على خلع معاوية ونقض المعاهدة فقد طلب الإمام من أنصاره الخلود إلى الصبر والسكون ما دام

معاوية على قيد الحياة ، ثم خاطب سليمان بن صرد قائلا :

وأما قولك : « يا مذل المؤمنين فوالله لأن تذلوا وتعافوا أحب إلىّ من أن تعزوا وتقتلوا ، فإن رد الله علينا حقنا فى عافية قبلنا ، وسألنا الله العون على أمره وإن صرفه عنا رضينا ، وسألنا الله أن يبارك فى صرفه منا ، فليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حيًّا ، فإن يهلك ونحن وأنتم أحياء سألنا الله العزيمة على رشدنا والمعونة على أمرنا ، وألا يكلنا إلى أنفسنا ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وفى النهاية دخل على الإمام بعض أصحابه وهو مندلع الثورة قد أخذ منه الوجد والأسى مبلغاً ليس بالقليل ، فقال له :

« يا ابن رسول الله أذللت رقابنا بتسليمك الأمر إلى هذا الطاغية » .

فقال الإمام : والله إنى ما سلمت الأمر إلا لأنى لم أجد أنصاراً ، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلى ونهارى حتى يحكم الله بينى وبينه ، ولكن عرفت أهل الكوفة وبلوتهم ، ولا يصلح لى منهم من كان فاسداً ، إنهم لا وفاء لهم ولا ذمة فى قول ولا فعل ، إنهم لمختلفون ويقولون لنا : « إن قلوبهم معنا وإن سيوفهم لمشهورة علينا » .

وترى مما تقدم أن الإمام رد على الناقدين لسياسته ، وأوضح لهم الحكمة فى ذلك ، وأجاب كلاً على عتابه ببراعة الحجة وأصالة الرأى .

كما بين لهم أنه لا ناصر له ولا معين ليناجز معاوية ، إذ لم يكن معه سوى أهل الكوفة الذين لا وفاء لهم ولا ذمة فى قول ولا فعل ، فكيف يحارب بهم معاوية .

وكما ترى أن الإمام لم يحفل بشيء مما قاله أنصاره ، وإنما رضى عن خطته كل الرضا ورأى فيها حقناً للدماء ووضعاً لأوزار الحرب ، كما كرر بذلك لكل من عارضه ومن عاتبه ، وجمعاً لكلمة الأمة ، وتمكيناً للمسلمين من أن يستقبلوا أمورهم مؤتلفين لا مختلفين ، ومتفقين لا مفترقين ، ومن أن يفرغ أهل الثغور لثغورهم يردون عنها طمع العدو فيها وفيما وراءها ، ومن أن يفرغ الجند للفتح يستأنفونه من حيث وقفته الفتنة .

ولم يكن قعود الحسن عن الحرب جبناً ، وإنما كان كراهية لسفك الدماء من جهة وشكًّا فى أصحابه من الجهة الأخرى[١] .

وأخيراً فيرى الشيعة أن عليًّا قد أنبأ الحسن فى أكثر من مناسبة أن معاوية لا يموت حتى يملك ما تحت قدميه ، ولما عوتب الحسن من أصحابه فى أمر الصلح كما رأينا قال : « سمعت أبى عليًّا رحمه الله يقول : سيلى أمر هذه الأمة رجل واسع البلعوم كبير البطن ، فسألته : من هو ؟ فقال : معاوية ، كذلك تنبأ النبى صلى الله عليه وسلم بملك بنى أمية ، إذ رآهم فى المنام يعلون منبره واحداً واحداً ، فشق ذلك عليه ، فأنزل الله سبحانه وتعالى عليه : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن) . كما أنبأ النبى أن ملكهم سيدوم ألف شهر ، فأعطى الله النبى ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر »[٢] .

---

(١) الأستاذ العميد الدكتور طه حسين .

(٢) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة .

موقف الإمام الحسين من الصلح :

اختلف المؤرخون فى موقف الإمام الحسين من صلح أخيه الإمام الحسن مع معاوية فيقول البعض إن الإمام الحسن أرسل إلى أخيه أبى الشهداء رضى الله عنهما فأتاه .

فقال : أى أخى ، إنى رأيت رأياً وأحب أن تتابعنى عليه .

فقال : ما هو

فقال : رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلى بين معاوية وبين هذا الحديث فقد طالت الفتنة وسفكت فيها الدماء وقطعت الأرحام وعطلت السبل وعطلت الثغور .

فقال الحسين : أعيذك بالله أن تكذب علياً فى قبره وتصدق معاوية .

فقال الحسن : والله ما أردت أمراً إلا خالفتنى إلى غيره ، والله لقد هممت أن أقذفك فى بيت فأطبنه عليك حتى أقضى أمراً .

فلما رأى الحسين غضبه قال فى أدب رفيع : أنت أكبر ولد على وأنت خليفتى وأمرنا لأمرك تبع فافعل ما بدا لك .

والفريق الآخر يقول إن موقف سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام من قضية الصلح كموقف أخيه الحسن عليه السلام فكان يرى ضرورة المهادنة ولزوم المسالمة وأنه ليس من الحكمة ولا من الصالح فتح باب الحرب مع معاوية ، فإنه يعود بالمضاعفات السيئة على الإسلام ، ويجر الويلات والخطوب

للمسلمين وذلك لتفلل الجيش الذى نزح معهم .

ويروى بعض رجال التاريخ أن الحسن عليه السلام قال لابن عمه عبد الله بن جعفر : « إنى رأيت رأياً أحب أن تتابعنى عليه » فانبرى إليه ابن جعفر قائلا : ما هو ؟

رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلى بين معاوية وبين هذا الحديث ؛ فقد طالت الفتنة وسفكت فيها الدماء وقطعت الأرحام وعطلت الفروج » .

فأيد ابن جعفر رأيه قائلا : « جزاك الله عن أمة محمد خيراً وأنا معك » .

ويدلل هذا الفريق على أن الإمام الحسين كان موافقاً على الصلح من أنه لما أبرم الإمام الحسن الصلح أقبلت إلى الإمام الحسين طائفة من الزعماء والوجوه يطلبون منه أن ينقض ما أبرمه أخوه ويناجز معاوية فأبى عليه السلام وامتنع ولو كان رأيه مخالفاً لرأى أخيه لأجابهم إلى ذلك .

ونقول إنه مما لا شك فيه أن الصلح قد ترك فى نفس الحسين أسى مريرًا وحزناً مرهقاً كما ترك فى نفس الحسن أيضاً لوعة وحزناً ولكنهما سلام الله عليهما ماذا يصنعان والظروف لم تكن مواتية لهما حتى يقوما بمناجزة معاوية .

لقد تم الصلح وعادا إلى المدينة معاً .

ولعله من المفيد أن أختم هذا الموضوع بالبحث القيم الذى كتبه السيد عبد المحسن شرف الدين عن « ثورة الحسين صدى لصلح الحسن » يقول : « كان بنفسى من قديم أن أعنى ببحث هذه المسألة بحثاً يدفع هذه الشبهة عن أبى محمد فى نفوس غير المتمكنين فى فهم التاريخ فهماً صحيحاً ،

وكثير من هؤلاء لا يرجعون إلى مصدر علمى فى وزن هؤلاء النفر من أهل البيت وإخضاع حركاتهم فى حالتى مدها وجزرها للمبدأ الأسمى الذى طوعهم لخدمته وأفنى ذواتهم فى ذاته ، فكانوا ينقبضون حين يشاء لهم الانقباض وينبسطون حين يشاء لهم الانبساط كذلك .

كان بنفسى أن أرد هذه الشبهة عن أبى محمد السبط بإقامة هذا الميزان العلمى الذى يجلو هذه الحقيقة ويكشف خدرها ، غير أن وارداً ثقيلاً من المشاغل التى لا تنتهى كان يصرفنى عما بنفسى من ذلك فهأنذا الآن أوجز الإشارة إلى هذه الشبهة ودفعها ، وعسى أن تعود هذه النواة غرساً أتعهده أنا بما ينميه إن سنحت الفرصة أو لا فينميه قلم من هذه الأقلام الصقيلة المغموسة بقلوب الأحرار وعقول العلماء من خدام الحقائق .

أما الشبهة فقديمة كقدم النظر القاصر فيمن يأخذون من الأشياء بالظاهر ، والملمون بتاريخ الحسن عليه السلام يعرفون أن قوماً من صحابته أخذوا عليه قعوده عن حرب معاوية ومناجزته إياه القتال ، حتى لأوشك أن يذهب يومئذ ضحية هذه الفتنة ، وحتى دخل عليه خاصته بسلام غليظ يقولون فيه « السلام عليك يا مذل المؤمنين » .

وقد يكون لهؤلاء عذر بحماستهم التى نعرفها لذوى النجدة من فتيان الإيمان الذى تغلب فيهم عاطفة الحماسة واستقرار الروية وبعد النظر .

وقد يكون ذلك ، ولكنا لا نقصد الآن إلى الاعتذار لهم ، بل نريد أن نثبت طرف هذه الشبهة عن الأول لنراها تتسلسل منه فتظهر بين حين وآخر ، طوراً

على لسان أوليائه ، وتارة على لسان أعدائه ، وهى هنا وهناك لا تظهر إلا لتدل على جهل هؤلاء وأولئك .

فنحن حين نزن صلحه عليه السلام وحربه نرجح كفة الصلح من حيث اعتبرت المعايير المرعية ، وكن إذا شئت (ماديًا) أو كن (روحيًا) تتجاوز بإيمانك وفهمك مدى المحسوسات المرئية .

كن أول الأمر ماديًا وناقش حرب الحسن فى جيش حكم على نفسه بالهزيمة قبل أن يخوض المعركة ، وغزاه معاوية الذى ثبت لعلىّ من قبل ، ولعلىّ معنوية عسكرية ترجف الأرض من خيفتها . مضافاً إلى معنوياته الأخرى التى لم يكن الحسن يتمتع بمثلها فى نفوس معاصريه .

نعم لك أن تقول كان على الحسن أن يستشهد فيموت عزيزاً ، ولكن أعد النظر فى تاريخ هذه الفترة لترى أن الاستشهاد فيها ينمسخ إلى معنى من معانى (الخروج) فلم تكن يومئذ حقيقة وطنية ثابتة ولا روحاً مبدئية مستقرة لتكون التضحية تضحية مقررة القواعد ، وليس أتفه فى هذه الحال ، من الموت يعين على صاحبه ويميته مرة أخرى فى معناه .

كذلك الحياة الإسلامية تنتكس حقًا وتتحول إلى ملك عضوض ، وكانت المطامع تتجند فى ركاب الملك هاربة من حواشى الخلافة ، ولكنها كانت ما تزال تحتفظ بوسيلة الإسلام وظاهر مبادئه فى (وصولية) صاغها معاوية بدهائه ، وكان هذا وحده عذراً للحسن من ناحيتين :

١ - كان عذره فى الصلح لأن (الدنيا) كانت تظاهر معاوية فتستلب

منه ابن عمه وقائد عسكره .

٢ – ثم كان عذره فى القعود عن الشهادة ، لأن ذلك بعينه ليس ظرف الشهادة لأنه كان قادراً على مسخها .

فأى ربح مادى فى الموت لو اختاره الحسن كما يريد هؤلاء غير أنه يعين معاوية على نفسه حيًّا وميتاً .

إننى لا أرى شيئاً أدل على عظمة الحسن من هذه السياسة المادية التى حددت موقفه على هذا النحو فى أخطر دور مرّ به الإسلام ، فكانت نواة لقلب الحكم الأموى كما كانت مادة ذلك البارود الجبار الذى انفجر فى مصرع الحسين عليه السلام ذلك الانفجار ، ولو لم يكن موقف الحسن هذا لأتيح لمعاوية سلطان لا يعرف الناس منطوياته ، ولما أتيح للحسين أن يكون الفداء الخالد للمبدأ الخالد .

وبعد أن كنت ماديًّا فكن (روحيًّا) وناقش حرب الحسن لتجتمع لك الاعتبارات كلها على رجحان كفة الصلح .

الحسن عليه السلام ليس من طلاب (الإمرة) لذات الإمرة ، بل هو ممن يريدون الخلافة وسيلة للإصلاح . وإقامة العدل والسلام بين الناس ، وما أظن هذه العقيدة الروحية تعدم دليلها المادى فأبوه وجده أثبتا فى الإسلام أنهما كذلك ، وله قبل الإسلام إرث ينهض دليلا على أنه من معدن مصلح لا يطلب النفوذ إذا استغنى عن فعل الخير .

ومن هنا كان سهلا عليه أن يتنازل عن الخلافة لأنه فى فترة لا تقدر هى على

بداء الخير فى ظل ذلك الجيل المكبوت المشتاق إلى الشهوات يصيب منها فوق كفايته على مواثد معاوية ، بل لقد كان الواجب عليه أن يتنازل مع عدم المقدرة على تذليل العقبة من إخضاع (الأموية) المندفعة لأن تنازله يأتى وفق الخطة التى رسمتها له مبادئه .

وليس عاتبو تنازله أشد إحساساً منه بآلام التنازل وهو المجروح ، ولكنها التضحية الضخمة فرضت عليه أن يتحمل آلام القعود التى كتبتها عليه مثله العليا ومبادئه الحسنى .

وهى تضحية لا تقل قدراً ، إن لم تزد ، عن تضحية الإمام الحسين عليه السلام وكن الآن ما شئت ، كن ماديًّا أو كن روحيًّا فستنتهى آخر الأمر إلى نتيجة رائعة ، وهى أن صلح الحسن مصدر من أكبر مصادر ثورة الحسين التحريرية ، وإلى أن جوهر التضحية واحد عند الإمامين وإن اختلف مظهرهما » .

والحق أنه عليه السلام لو ضحى بنفسه لذهبت تضحيته معدومة الأثر ، لا تقيم حقًّا ، ولا تغير باطلا ، لأن معاوية بمكره وخداعه يلقى المسئولية على الحسن ويبرئ نفسه عن ارتكاب الجريمة .

فيقول للناس : « إنى دعوت الحسن للصلح ، ولكن الحسن أبى إلا الحرب ، وكنت أريد له الحياة ، ولكنه أراد لى القتل ، وأردت حقن الدماء ولكنه أراد هلاك الناس بينى وبينه . . . » ومعاوية له هذه القابليات التى يظهر بها نفسه مظهر العادل المنصف ، وبذلك تكون التضحية مسلوبة

الأثر معدومة الفائدة .

أما الحسين عليه السلام فقد جاءت تضحيته الخالدة موافقة لظرفها الملائم ومنسجمة مع مقتضيات الزمن ، لأن الأثيم يزيد ليس معه من يدير شئونه ويردعه عن طيشه وغروره ، فقد هلكَت تلك العصابة التى كان يعتمد عليها معاوية فى تدبير شئونه كابن العاص والمغيرة وأمثالهما من دهاة العرب ولم يبق منهم معه أحد ، فلذا نهض الإمام الحسين عليه السلام بتلك النهضة الموفقة التى جاءت بالنهاية المحتومة لدولة أميَّة .

وبالجملة إن مهادنة الحسن وشهادة الحسين عليهما السلام قائمتان على فكْرة عميقة منبعثة من وحى جدهما الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولولا صلح الإمام الحسن وشهادة أخيه سيد الشهداء لما بقى للإسلام اسم ولا رسم ، وفى ذلك يقال إنه كما كان الواجب فى الظروف التى ثارفيها الحسين سلام الله عليه على طاغوت زمانه أن يحارب ويقاتل حتى يقتل هو وأصحابه وتسبى عياله ودائع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان هذا هو المتعين فى فن السياسة وقوانين الغلبة .

كذلك كان الواجب فى ظروف الحسن رضى الله عنه وملابساته هو الصلح وشهادة الحسين ، والذى لولاه لما بقى للإسلام اسم ولضاعت كل جهود سيدنا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به للناس من خير وبركة ورحمة .

ولم يقتصر نقد صلح الحسن على أصدقائه وشيعته ، بل تجرأ (لامنس)

الرجل الذى حاول أن يطعن الدين الإسلامى فى كل ما كتبه ، فيقول : « وبويع الحسن بعد مقتل علىّ فحاول أنصاره أن يقنعوه بالعودة إلى قتال أهل الشام . وقلب هذا الإلحاح من جانبهم حفيظة الحسن القعيد الهمة ، فلم يعد يفكر إلا فى التفاهم مع معاوية ، كما أدى إلى وقوع الفرقة بينه وبين أهل العراق ، وانتهى بهم الأمر إلى إتخان إمامهم اسماً لا فعلا بالجراح ، فتملكت الحسن منذ ذلك الوقت فكْرة واحدة هى الوصول إلى اتفاق مع الأمويين ، وترك له معاوية أن يحدد ما يطلبه جزاء تنازله عن الخلافة ، ولم يكتف الحسن بالمليون درهم التى طلبها معاشاً لأخيه الحسين بل طلب لنفسه خمسة ملايين درهماً أخرى ودخل كورة فى فارس طيلة حياته ، وعارض أهل العراق بعد ذلك فى تنفيذ الفقرة الأخيرة من هذا الاتفاق ، بيد أنه أجيب إلى كل ما سأله حتى إن حفيد النبى اجترأ فجاهر بالندم على أنه لم يضاعف طلبه وترك العراق مشيعاً بسخط الناس عليه ليقبع فى المدينة » .

وزيادة على ذلك فهناك كثير من المؤرخين الآخرين يلقى تبعة الصلح على الحسن نفسه ، إذ قد أثار الريبة فى موقفه حين طلب منهم البيعة على أن يكُونوا سامعين مطيعين يسالمون من سالم ويحاربون من حارب ، فعده بعض أهل العراق ليس لهم بصاحب وما يريد القتال ، فقصدُوا الحسين وعرضوا عليه البيعة فأبى عليهم ما دام الحسن قائماً .

ويرى بروكلمان : أن الحسن لم يكن رجل الساعة إذ رفض أن يصحب جنده ليهاجم عدوه . وذهب « هوكلى » إلى أن الحسن لم يكن كفؤاً للموقف

لميله إلى السلم . وعد « سايكس » الحسن غير جدير أن يكُون ابناً لعلىّ ، ذلك الرجل العظيم لانشغاله بملذاته واكتفائه بإرسال اثنى عشر ألفاً كطليعة لجيشه .

وكذلك قال المستشرق (روايت م رونلدس) : « إن الأخبار تدل على أن الحسن كانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية العقلية لقيادة شعبه بنجاح » .

وقال الدكتور (فيليب حتى) : « وفى بدء حكم معاوية قامت حركة أخرى كان لها شأن كبير فى الأجيال التى تلت ، أعنى إعلان أهل العراق الحسن بن على الخليفة الشرعى ، ولعملهم هذا أساس منطقى ، لأن الحسن كان أكبر أبناء علىّ وفاطمة ابنة النبى الوحيدة الباقية بعد وفاته ، ولكن الحسن الذى كان يميل إلى الترف والبذخ لا إلى الحكم والإدارة ، لم يكن رجل الموقف فانزوى عن الخلافة مكتفيًا بهبة سنوية منحه إياها » .

وما كتبه (لامنس) وغيره من المستشرقين عن صلح الإمام فيه كل الحقد والعداء للإسلام ، كما أن رأيهم لم يكن خاضعاً لحرية الفكر ، ودراستهم تعتمد على الدراسة السطحية الخالية من التحقيق والتدقيق ، كما لم يحتضن قولهم الدليل فى جميع أحواله ، وذلك لعدم وقوفهم على العوامل التى أحاطت بالإمام حتى دعته إلى مسالمة خصمه . وإن كان البعض قد أعطى الإمام الحسن العذر فيقول (دونلدسون) : « إن الحسن صالح معاوية حين شعر أن أصحابه قد افترقوا عنه » . ويقول (ميور) : « إنه على الرغم من حزن أهل العراق على رحيل الحسن ، فإنه لم يأسف لفراقهم ، فإنهم جماعة لا يمكن الثقة بهم فهم

لا يستقرون على رأى واحد » ، وأخيراً يقول السيد أمير على : « إن عدم استقرار الشعب المتقلب الأهواء كان العامل الذى حطم آمال علىّ بن أبى طالب وحمل ابنه الحسن على النزول على الخلافة »[١] .

ولا شك أن تعليقات أكثر المستشرقين الذين تجنوا على الحسن – رضى الله عنه – فيها تجاهل للموقف ، فمما لا شك فيه أن الأمور كانت تسير من سيئ إلى أسوأ فى أواخر عهد الإمام على ، وقد تولى الحسن الخلافة فى أدق الظروف ولم يكن تحت ولايته من الأقاليم غير العراق بعد أن استولى معاوية على معظم أرجاء الدولة ، وكان مقتل الإمام على أكبر انهيار فى الموقف ، ثم توالت الخيانات من أشراف العراق كما بينا ، وقد عبر الإمام الحسن نفسه عن سبب تنازله بقوله : « يا أهل العراق إنى سخى بنفسى عنكم لثلاث : ١ – قتلكم أبى . ٢ – طعنكم إياى . ٣ – انتهابكم متاعى ، وكرهت الدنيا ، ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد أبداً إلا غلب ، ليس أحد منهم يوافق آخر فى رأى ، لا يطمأن لهم فى خير ولا شر قد لقى أبى منهم أموراً عظاماً[٢] .

---

(١) ابن قتيبة = الإمامة والسياسة .

(٢) ابن الأثير ، الكامل .